

(٩)

الإسلام والكون

كان عليه الصلاة والسلام إذا سئل عن معجزة قال لسائله «حسبكم الكون معجزة. انظروا إلى الأرض فهي من عجائب صنع الله. وآية على وجوده وعظمته. خلقها لكم وسلك لكم فيها سبلا. تمشون في مناكبها وتأكلون من رزقه. ثم انظروا إلى السحاب المسير في الآفاق يسح بمائه فيحیی أرضاً موتاً، ويخرج منه زرعاً ونخيلاً وأعشاباً. ثم انظروا إلى الأنعام خلقها لكم تجعل المرعى سائغاً للشاربين. ثم انظروا في أنفسكم فأنكم معجزة. لقد كنتم صفاراً، ومن قبل لم تكونوا شيئاً مذكوراً. ثم وهب لكم الله العقل والقوة والجمال والرحمة أشرف الصفات. صدق رسول الله ففى الكون معجزة وأى معجزة أكبر من معجزة الكون. وكيف يرد رسول الله على أناس ضاقت عقولهم وعميت بصيرتهم حتى إذا رأوا آية قالوا سحر مستمر.

ويحدثهم رسول الله ويدعوهم إلى نظرة عميقة تريهم عظمة الكون وجماله وعظمة الخالق وقدرته، فيقول لهم انظروا إلى الكون ففيه معجزة، ولكن أنى يفقهون وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٥﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩٦﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٧﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ

حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (الإسراء ٩٠-٩٣).

هكذا كان حديث الناس يريدون معجزة تثبت وجود الله، وتثبيت صدق دعواه ويريد الرسول أن يريهم الدليل على ذلك ملموسا يلمسونه بأيديهم ويرونه بأعينهم فيقول لهم: «حسبكم الكون معجزة. انظروا الى الأرض فهي من عجائب صنع الله، كيف لا وتلك الأرض الكروية التي أبدع الله خلقها وأعطاها القدرة على الحركة الدائمة بتلك السرعة الهائلة كما أخبرنا سبحانه وتعالى في قرآنه المعجز :

وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ
(النمل ٨٨)

سبحانك ربى تخبرنا عن دوران الأرض فتضرب المثل بالجبال الراسيات تحسبها جامدة، وهي فى الحقيقة تمر مر السحاب. ومما لا شك فيه أن تتحرك الجبال وحدها والكرة الأرضية ثابتة ساكنة.

فتلك الأرض تدور حول نفسها وهكذا يكون يومنا ليلا ونهارا وفى ظلام الليل آية وفى وضوح النهار آية أخرى ومبجانه حين يقول:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾

(آل عمران ١٩٠)

وتدور الأرض دورة أخرى حول الشمس فى كل عام مرة وهكذا تكون فصولنا الأربعة من حر إلى برد إلى ربيع ثم إلى خريف. حتى إذا رفعنا رؤوسنا إلى السماء، وقد رفعت بغير عمد ذلك تقدير العزيز العليم. وإذا بنا نردد قوله سبحانه وتعالى:

قُلْ أَنْتُمْ أَنْتُمُ الْمُكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ

الْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَمَاقَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

سَرَّاءَ لِّسَانٍ ﴿٩٢﴾ ثُمَّ أَسْرَوْنَ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ
الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

(سورة النمل)

قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ مَمَلَّاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْصِيحٍ وَحِفْظٍ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾
(فصلت ٩-١٢)

ثم نقول للمشركين مرة أخرى ما يقوله سبحانه وتعالى:

«أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتْنَعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ ﴿٣٣﴾»
(النازعات ٢٧-٣٣)

سبحان الله ألا يدعو إلى التفكير في الله ذلك الكون بعظمته واختلاف ليله ونهاره واختلاف حره وبرده. ألا يشعرا بوجود الله ذلك القمر الذي يبدأ هلالا ثم يستدير ثم يعود كالعرجون القديم:

وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

(يس ٣٩-٤٠)

لقد استطاع ابراهيم عليه السلام أن يعرف ربه وخالقه من نظرة إلى النجوم، ثم إلى القمر، ثم إلى الشمس، ثم انتقل من كل ذلك إلى الله الواحد الأحد خالق كل شيء الموجود أبدا، والذي لا يغيب أبدا وجوده دائم، ونوره دائم ويحدثنا القرآن الكريم عن ذلك فيقول:

* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِزْرَأْ أَتَخِذُ أَصْنَامًا إِلَٰهَةً ۖ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ دُخِّلَ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ

أَلْقَمَرًا بَارِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٩﴾
 فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا
 تُشْرِكُونَ ﴿٨٠﴾ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

(الأنعام ٧٤-٧٩)

حتى إذا قدر لنا أن ننتهي من التأمل في الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم
 كان علينا أن ننظر إلى ما على الأرض. من جبال ووديان وأنهار وحيوان وإنسان كل
 خلق فأبدعت خلقته عندئذ نقول ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ونردد قوله
 سبحانه وتعالى:

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ
 اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٨١﴾

(الرعد ٣)

ثم فلنتدبر قوله سبحانه وتعالى:

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُورَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ ثَلَاثٍ
 لَحْمًا طَرِيًّا وَتُسَخَّرُ جَوْفَ حَلِيَّةٍ تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ ﴿٨٢﴾

(فاطر ١٢)

ثم فلنقف قليلا أما البحار والأنهار وننظر إلى المحيطات والبحيرات الممتلئة بالماء
 الزاخرة بالحياة تؤثر فيها حرارة الشمس وحركة الهواء فيعملان معا على بخر المياه
 حتى إذا تجمع البخار في الطبقات العليا من الجو حيث يتكاثف ذلك البخار، ويكون
 السحاب فتحمله الرياح الى حيث يشاء الله الى حيث يسح ماؤه فيحيى أرضا مواتا

فنتبت الأشجار وتكثر الثمار، وتطيب الحياة، ويحدثنا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز فيقول:

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا
فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾
وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِينَ ﴿٤٩﴾

(الروم ٤٨-٤٩)

ويقول أيضا جلّت قدرته:

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْجَبْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ
حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا
وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾
(الأنعام ٩٩)

حتى إذا تركنا الماء ليخرج به نبات كل شيء فلنفكر لحظة في الحب والنوى وما يخرج منها من أشجارا اختلفت ألوانها وأشكالها وثمارها، فنفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون.

فلننظر إلى الحب وقد احتوت كل حبة على قصة حياة كاملة لنبات شكله وحجمه وثمره لا تحتاج هذه القصة إلا أن نجد الأرض الطيبة والمياه الصالحة فتظهر إلى عالم الوجود.

وإذا كان الشائع في النبات أن يختار غذاؤه من الماء والأملاح الذائبة في التربة، ومن الهواء فإذا به يحول هذه المواد الأولية إلى سكر ونشاء تتغذى عليه، وتتغذى عليه سائر الحيوانات فإن من النبات من لا يرضى بهذه الطريقة في الغذاء فيتغذى على الحيوان كما يتغذى الإنسان، ومن هذه الأمثلة نبات النيينش الذي يوجد في جزر الملايو، فورقة

هذا النبات على شكل جرة ذات غطاء، وتتجمع قطرات الماء داخل هذا الوعاء حتى إذا جاءت حشرة استهواها رحيق هذا النبات الحلو المذاق، ووصلت الجرة لترتشف من هذا الرحيق، فإذا بالنبات يحس بهذه الحشرة فيغلق فتحة الجرة بغطائها ثم تبدأ عملية الهضم بأنزيمات خاصة يفرزها هذا النبات لإذابة هذه الحشرة فتكون سهلة الإمتصاص الذى إذا انتهى فتحت الجرة ثانية لتستعد لإستقبال الفريسة الثانية وهكذا.

هناك نوع آخر من النبات يسمى بالدروزيلا لأوراقه عدد كبير من الزوائد الحساسة التى تفرز مادة لزجة فإذا سقطت حشرة ما على ورقة من هذه الأوراق التصقت بالمادة الرحيقية، وعبثا نحاول الفرار إذ تمتعها تلك الزوائد الحساسة التى تعمل كشباك حول الفريسة وتفرز عليها عصارتها الهاضمة، حتى إذا امتصت الحشرة اعتدلت الزوائد استعداداً للضيء الجديد.

كما أن هناك نبات آخر هو نبات الديوبينا كل ورقة من أوراقه على شكل مصراعين وعلى سطح كل مصراع أشواك دقيقة. فإذا ما وقفت حشرة على الورقة انطبق المصراعان وانغرزت الأشواك الحادة فى جسم الفريسة فتمزقها وبهذا تسهل عملية الهضم ثم الإمتصاص.

ثم ينتقل بنا حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى الأنعام. كيف خلقها الله وصورها. نستقى منها لبنا سائغا للشاربين. أفلا ترى فى ذلك اللبى معجزة، وفى تكوينه من المرعى معجزة تدل على قدرته سبحانه وتعالى فجدير بنا أن نستبطن الأمر فلا ننظر تلك النظرة السطحية التى تخفى جمال الباطن وعمقه وعظمته.

وهناك فى مملكة الحيوان معجزات استمعوا الى قوله تعالى:

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِى عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

(النور ٤٥)

ومن منا لم ينظر إلى عالم الحيوان، وما فيه ولم يتأمل ما خلق الله وأبدع في خلقه. فليُنظر من لم ينظر إلى عالم النمل، وكيف يسعى ويجد ليختزن من حره لبرده وكيف يطير النحل بين الأزهار ليرتشف من رحيقها ما يقتات به وتقتات به صغاره. ثم فليُنظر من لم ينظر إلى عالم الطير، وكيف تطير من غصن إلى غصن باحثة عن أكلها وغذائها فلعله يرى في هذا وذاك دقة المخلوقات ودقة الصانع.

ولعله يرى في جمال الخلق جمال الخالق، وفي عظمة الكائنات عظمة الخالق الواحد.

تعالوا ننظر إلى هذه الحيوانات كيف تعيش. وهل لها حس كما لنا حواس وهل لها قلوب تدب بالعاطفة والحب ما تدب قلوبنا. وهل تستطيع أن تفكر كما نفكر، وهل هناك تعاون بين أفرادها كما هو الحال بيننا، ويوجب القرآن الكريم عن ذلك في وضوح تام واختصار حلو جميل في قوله تعالى في سورة الأنعام:

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ (الأنعام ٣٨)

فلو نظرنا إلى النحل، وكيف تسيطر الملكة على الخلية فهي القوية الحاكمة فهي التي تضع البيض وعلى باقى الرعية الخدمة التامة وحماية الملكة:

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

(النحل ٦٨-٦٩)

وإذا كان هذا هو الحال في دنيا النحل ففي مملكة النمل ما هو أغرب وأعظم فهناك

الملكة يحيط بها أفراد الخلية من شغالة وجنود. تقوم الشغالة بالخدمة العامة وإحضار الغذاء وتربية الصغار، ولا عمل للذكور إلا تلقيح الملكة والدفاع عن المملكة.

ومن النمل أنواع كثيرة فمنها الرحال الذى ليس له مكان خاص فيرحل فى جماعات من مكان إلى مكان آخر، ومنها النمل الزراع الذى يبذر بذور الفطر ثم يرويه بما يجلب، لها من ماء فى فمه حتى إذا نبت الحب ونمى الزرع تتغذى عليه النمل كما تتغذى الماشية على البرسيم.

وأنه لمن المدهش حقا أن نرى فى مساكن النمل حشرات المن التى تعيش وإياها عيشة المعاشرة، ويحيون سويا حياة التكاثف والتساند فيمدها المن برحيقه وشمعه، كما تمدنا الأبقار باللبن وذلك أجرا لإيوائه وثمنا غاليا يدفعه لأمنه وسلامته.

وأن أبداع ما فى مملكة النمل تلك المساكن التى يبننها تحت الأرض بها حجر خاصة، منها حجرة العرش حيث تسكن الملكة لتضع البيض، وحجر أخرى لتربية الصغار وحجر للتخزين ويوصل بين الحجرات ممرات جميلة منسقة، ويحرس الجنود باب المملكة كل فى عمله بنظام غريب بديع يدل على فهم وإدراك.

وما حديث تلك النملة الى أهلها وعشيرتها عندما مر سليمان عليه السلام بوادى النمل يخاف على أحد:

حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

(النمل ١٨)

ولعل من أهم الفرائز الموجودة بين الحيوانات هى غريزة حب القتال وحسب الاستعمار مثلها فى الحياة، كمثل كثير من الدول التى نسمع عن غدرها وقسوتها

ولعل أقرب الأمثلة لهذا هو ما نشاهده في نوع من أنواع النمل لا يستطيع أن يخدم نفسه، ولا يختزن قوته في حره لبرده لذلك فهو يلجأ إلى الحرب ليتخذ من أسراه عبيدا يسهرون على خدمته وراحته. وكثيرا ما يهاجم أنواعا أخرى من النمل من تلك التي تعتمد على نفسها فتزرع وتختزن ما تأكل فتبدأ الحرب بين الجيش المهاجم وجنود المستعمرة. ولما كان أفراد الجيش المهاجم يمتازون بالجرأة والشجاعة والقدرة على القتال كان النصر حليفهم، وسرعان ما يتقهقر العدو ويستولى الجيش المهاجم على المستعمرة فينقل صغارها إلى موطنه، والتي عندما تكبر تبدأ حياتها كما لو كانت في مسكنها الأصلي، وبين أهلها وعشيرتها تخدم أسيادها بأمانه، وكما يقال أن هؤلاء السادة لا يصيبون أسرارهم أو خدمهم بسوء حتى أنهم قد يدخلون حربا شعواء إذا ما اعتدى عدو على أحد الخدم.

ثم فانتقل إلى موضوع آخر يرينا الكثير من التشابه بين طباعنا وطباع الحيوانات إلا وهو كيف يختار الحيوان أليفته وشريكته في الحياة، وكيف يتنافس أكثر من حيوانين من أجل أنثى واحدة.

فهناك فراش يقال له قرن الوعل تتجمع الذكور حول الأنثى كل يتقدم لخطبتها يطير حولها بأجنحته مظهرها هيامه وغرامه، ولكن الأنثى تختار من خطابها واحدا ترضاه ويجوز قبولها فيتراجع الباقون ويختفون.

وهناك نوع من الخنافس يتسلح الذكر بقرنين يستعملهما للقتال نصرا للحب بين المحبين المتنافسين، وكثيرا ما يتقدم إلى الأنثى الواحدة أكثر من ذكر واحد يبدأ بينهما قتال وحشى يفوز بالأنثى من يصمد في القتال وينتصر.

كما أن هناك نوع من الخنافس يعيش الزوجان في مسكن واحد، وويل لمن يقتحم عليهما المسكن فيقاتله الذكر وتساعد الأنثى في هذا القتال فهي تحرس مدخل العش وتدفع زوجها من الخلف تبث فيه الحمية، وتشجعه إلى القتال في سبيل وحدة الأسرة واستقلال العائلة.

والآن ننتقل إلى الطيور وما حنو الطير على صغاره إلا أمرا معروفا لنا جميعا.

«إننا جميعا قد شاهدنا دقة بناء العش وحسن اختيار مكانه. وكيف يتعاون كل من الذكر والأنثى في ذلك حتى إذا اكتمل بناء العش، ووضع البيض تناوب الذكر والأنثى الرقاد والحضانه كما تتناوبان الرعاية والحراسة.

ولعل من أغرب طباع الطير محاكمة بعضها البعض، فقد شوهد في الغربان بأنه إذا اعتدى غراب على آخر كأن يسلبه غذائه صرخ الغراب المعتدى عليه بصوت ذا نغمة معروفة فسرعان ما تتجمع الغربان حول المجرم على هيئة محكمة وإذا بالمعتدى ينجو على الأرض باسطة جناحيه طالبا الرأفة والرحمة من هيئة المحكمة. ولكن المحكمة تحكم بالإدانة يتبعها العقاب مشمولا بالنفاذ.

وما العقاب إلا بالضرب بالمناكير حتى يموت المعتدى أو يشرف على الموت.

ولعل من طباع الطير الغريبة أيضا أنها تترك موطنها الأصلي، إذا ما ضاق بها الحال وصعبت المعيشة هناك كقلة الغذاء أو برودة الجو أو غير ذلك من الأسباب، فتهاجر إلى بلد ناء لا تعباً بطول الطريق، وما يعترضها من بحار ومحيطات حتى تصل إلى ما تصبو إليه من غذاء وجو يطيب لها الإقامة فيه، وليس الغريب أن ترحل هذه الطيور ولكن الغريب أنها تعود إلى موطنها الأصلي إذا ما شعرت - والله يعلم كيف تشعر بذلك - بأن الغذاء هناك أصبح موفورا والحياة أصبحت سهلة ميسورة فتذهب من حيث جاءت فتجد ما شعرت به حقيقة واقعة لا وهما وسرابا.

هذا قليل من كثير فلنتدبر قوله سبحانه وتعالى:

إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾

وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢١﴾ (الجنائية ٤)

ثم أخيراً، وليس آخراً بعد أن ننتهى من التأمل فى مخلوقات الله صغيرها وكبيرها من نبات وحيوان وجماد، كان من الواجب علينا أن ننظر الى أنفسنا فتحن معجزة وأى معجزة أكبر من خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ويدعونا القرآن الكريم فى أول سورة أنزلت على سيد الخلق أجمعين فيقول:

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ

﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ (سورة العلق ١-٥)

ويحدثنا القرآن الكريم فى سورة أخرى:

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ

ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ هُوَ

الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٨﴾

(غافر ٦٦-٦٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا الشَّمْسُ بِبَغِيٍّ لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْيَلُّ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٥٥﴾

(سورة يس)